المرأة التي رممت شظايا رجل

الأيام والليالي بدونها

الجزء الأول

عزوز شخمان

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز استخدام أو تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن خطي مسبق من الكاتب أو الناشر.

عجرفة قلم

هذه قصة امرأة حقيقية. هي قصتها وقصة كل امرأة حقيقية بمعنى الكلمة. وكما ينبغي أن تكتب وتقرأ القصة. وكما ينبغي أن تحكى قصة النساء من مثيلاتها. قصة كتبت بالدموع والدماء والألم. أكتبها وأعيد صياغتها بدون كلل. وفي كل مرة جديدة تتوهج الكلمات والحروف وتفيض حياة ومشاعر جياشة. وتنبض بأشواق مغتالة وآلاف الأيام والليالي التي ضلت طريقها وأخلفت الموعد بسبب كبرياء زائف وغرور ملعون وغفلة الركض واللهاث وراء الوهم والهباء والهراء. قصة أكتبها اليوم بأنامل تعض على القلم بمشاعر من الندم. وألم لا يطاق. لكنها قصة لا بد لها أن تكتب هكذا من البداية الى النهاية. دون مساحيق ولا تحريف او تزييف ليقرأها عامة الناس. لإنها القصة التي يعيشها كل الناس رغم جهلهم لها وتجاهلهم لبطلتها. بل لا يراها أو يقر بها أغلب الرجال.

الفصل الأول

الحلم الأخير

1

سألتني يوم التقينا لأول مرة: هل تحبني؟ ابتسمت ابتسامة بلهاء ولم أجب. فمضت في طريقها ومضيت في طريقي. ومرت الأيام والشهور. لم تعد تجرؤ على طرح نفس السؤال كلما تصادفنا أو التقينا حول طاولة شاي أو داخل نفس المكان الذي كنا نشتغل فيه. هكذا ظلت علاقتنا. أخذ ورد كر وفر حول كلمة واحدة. وتمضي الأيام والشهور وتمضي هي ثم تعود لكنها لم تعد تطرح نفس السؤال. وأخيرا جاءت ليلة الزفاف. وفي لحظة خاطفة همست فيما بيني وبينها ونحن وسط حشد من الأقارب والمعارف. سألتني بعد فترة من التردد وكان يحق لها السؤال:

والآن قل لي يا عزيزي هل.....

لم أجب. وكانت دهشتي تفوق دهشتها. كل ما فعلت أنني نظرت اليها نظرة بلهاء خاطفة وتمتمت بعبارات مبهمة تحمل تلميحات يفهم منها ما كانت تريد سماعه. لم أكن واثقا مما قلته بالضبط لا أتذكر. لم تكن لدي الشجاعة ولا القدرة ولا الإرادة لقول تلك الكلمة السحرية. الكلمة الوحيدة والبسيطة التي كانت تطلبها مني وتريد سماعها. كانت تنتظرها أن تخرج من بين شفتي بكل عفوية. أما أنا فاكتفيت باجترار كلمات لم تكن لتقنعني أنا نفسي فكيف تقنعها هي؟ أطرقت برأسها ومضت. لكن الحفل استمر. واستمر معه صمتي. ومرت بضع سنين.

عادت وقدمت لي هذه المرة أغلى هدية في الوجود. منحتني أبوتي. وكانت في كل مرة تسألني نفس السؤال بنفس الالحاح ونفس اللهفة فأجيبها بنفس الأسلوب. أسلوب الجبناء الأنذال. فتمضي هي دون جواب مقنع مني وأمضي أنا وكأن شيئا لم يقع. دون حتى أن أدري ما مشكلتي وماذا دهاني؟ وتمضي الأيام بيننا هكذا. سؤال بديهي وجواب معلق. لا أدري سببا لهذا التهرب. أقترب من المعنى دون أن أدركه، حتى لو كنت أعنيه؟ هل كان ثمة مانع؟ كانت هي تطرق برأسها وتمضي وكنت أمضي الى صمتي وأنكمش في قوقعتي الوجودية وكأن شيئا لم يقع. ظللنا هكذا طوال ربع قرن. خلال هذه السنوات الطوال ظلت المرأة

الأهم في حياتي والألطف والأقرب صامدة ومثابرة في الحاحها فيما ظللت صامدا في عنادي المريع. الآن فقط أراني متأهبا للجواب عن ذلك السؤال الوجودي البسيط والشائك في نفس الآن. نعم لقد آن الأوان. لكن هل هذا موعده حقا؟ أم تراه قد فات الأوان؟

2

الليلة الأخيرة

حلمي الأخير قبل أن تعود غدا الى ملاذنا الأخير قبل النهاية المحتومة أن أستقبلها في المطار قرب الطائرة الاستقبال الوحيد اللائق بها. وأحتضنها الاحتضان الذي تستحقه ويستحقها. حلمي أن يكون استقبالا رسميا وشعبيا يفوق الوصف. بممر شرفي وسجادة حمراء كتلك التي تفرش للمشاهير وقادة الأمم. رغم مقتي لأغلبهم ورغم تحفظي واستخفافي من تلك الشهرة وتلك الطقوس والاحتفالات الباذخة التي كنت واحدا من المغيبين المنومين بسحرها وبهرجتها. لكن لا ضير فيها هذه المرة شرط ان تكون الأولى والأخيرة وتكون مخصصة لها هي لوحدها. ولا ضير أيضا أن يتحلق حول طائرتها كوكبة من الإعلاميين ومبعوثي القنوات الميديا وهمية او الوهميدية. نعم قد لا أجد مانعا في مشهد مماثل ولو على سبيل الاستثناء. ولتكن تلك هفوتي الأخيرة التي أسمح لنفسي بارتكابها لأجلها. فلتكن غلطتي الأخيرة من باب العبارة المأثورة أجمل الأخطاء. المهم أن يكون الأمر عبارة عن تجديد لزفافها. زفافا لمن لم يكن يستحقها أو يستحق تضحياتها. حتى لو لم يعوض ولو جزء بسيطا من تلك السنوات المهدورة. فلا باس من الاستدراك ولو قليل مما تبقى. واسترجاع ما يمكن استرجاعه. ودفن ما يمكن دفنه. كل ذلك اكراما لها. ستكون كلماتي لها مختصرة. وبسيطة. لكن واضحة ولتخرج صريحة بملء فمي ومن كل قلبي بكل نصاعته وبكل جوارحي. ستكون هي نفسها الكلمات التي ظلت تصر على سماعها أزيد من ربع قرن دون جدوى. كانت مجرد كلمات قليلة ظللت أضن بها عنها. كنت دائما وأؤجل الإفصاح عنها وأناور وأقاتل من أجل عدم البوح أو الإقرار بوجودها وبشرعيتها رغم كثرة الالحاح من طرفها دون أن تخرج من فمي او يلهج بها لساني. وانا كعادتي كنت أقاوم وأرفض الاستسلام في عناد عجيب واسطوري. عناد غبي. غباوة فطرية مقيتة مريعة نشأت وترعرعت وعشعشت في كياني المنفصم عن واقع أشد انفصاما بما فيه من أسباب ومبررات تدفعني

لتأجيل اللحظة سنة بعد سنة. حتى فات الوقت. هذه اللحظة التي حرمتها منها هل جاء أوانها الآن؟ هل تأخر موعدها أكثر من اللازم؟ لم لا أقولها بملء فمي وبمحض ارادتي واختياري. وأمام الملأ. وأنا الذي طالما بخلت عنها بقولها قبل الآن. لقد بخستها حقها الطبيعي والبديهي في سماعها وشرعية امتلاكها.

المرأة التي رممت شظايا رجل

الأيام والليالي بدونها

الجزء الأول

عزوز شخمان

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز استخدام أو تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن خطي مسبق من الكاتب أو الناشر.

الفصل الثاني

السفر

(3)

الليلة الأولى

لم أنم طوال الليل. الأمر ليس بجديد بالنسبة لشخص مثلي. وحالة كحالتي. كنت ولا زلت من قدماء رواد السهر المتأخر. أتعايش مع حالة لا نوم مستعصية. هذا في الأحوال العادية. فما بالك وهي الآن مسافرة. في رحلة مجهولة الإياب. كان الإياب معلقا وأنا كذلك. هل تدركون ما معنى هذا؟ لقد أصبحت وحيدا لأول مرة منذ سنوات الهجرة. إنها ليلتي الأولى بدونها إذن. وسوف لن تمر دون اشباح مرافقة أو كوابيس محدقة.

ها قد بدأ ركب الذكريات يطوف بذهني وينقلني في مركبة سفر عبر الزمن من (فجر مدينة أرلينغتون 2019 الى فجر مدينة سلا 2012) انها عودة متقهقرة للوراء لسبع سنوات كاملة. من السنوات الخداعات دون ريب. كانت لحظة الوداع تقترب ونحن نتجادل (أنا وهي) حول مسألة متفاقمة ومزمنة. لم يكن ثمة سبيل للتوافق حولها في تلك الفسحة الضيقة والخاصة التي تسبق مغادرتي للبلاد في اتجاه المجهول. كنت مهاجرا آنذاك هجرة أخيرة لا رجعة فيها. أو لعلي كنت هاربا. وهي الكلمة الأقرب الى الصواب. فلقد حاصرتني روائح ذلك الربيع الغريب الذي حل بالديار. لم تكن لها أدنى علاقة بروائح الرياحين والأزهار المتوخاة، بل فقط روائح كراهية وفتن، ومشاحنات وتغول ومكر واستغلال، وكر وفر، ومشاهد اضطهاد وامتهان لآدمية الناس واندحار ما تبقى من قيم. كانت روائح تزكم النفوس وتخنق الأنفاس. كنت أنا الآخر على حافة الاختناق لدواعي أخرى شخصية ومهنية ووجودية متفاقمة جعلت نقاشاتي معها لا تخفت حدتها طوال السنوات الأخيرة. وهي الفترة التي كنت قد خرجت فيها عن طوعي وأطواري، استحوذ فيها ظلي على زمام المبادرة. كان واحدا من عدة كينونات ومكونات متشاكسة داخلي. وثمة صراع ضار. وفي جذوة ذاك الصراع تمكن ظلي بشكل ما من الاستحواذ بينما كنت أنا -صاحب الشأن- غارق في وهم غيبوبتي بشتى أمراضها النرجسية. لم تكن الأرض لتسعني بسطحها وفضائها ولا لتقنعني بما في حوزتي كنت مازلت غرا. مبهورا ومخمورا. منتشينا بالأنا المتطاول. وكنت طماعا لا أرضى الا بالمزيد. لقد دأبت على حمل بطاقتي السحرية باعتزاز داخل محفظة نقودي المثقوبة. ذلك ما كان يتخيل لي آنذاك: بطاقة صحفي مهني محترف. كل كلمة كان لها وقعها الخاص. مفعولها يتسلل بين عروقي ومن خلال مشاعري ثم ينزل بغرور وكبرياء الى أخمص قدمي ويبدأ في

الصعود بنفس الهالة الى قمة رأسي ليتجول بخيلاء فوق دماغي ويبدأ مراسيم موكبه الشرفي الفخم عبر شعيرات وعريقات وخلايا مخيخي وفكري وخواطري جاعلا مني امبراطور عصره وفاتح أقاليم الأرضين والأكوان الموازية. كيف لا وانا الصحفي (المستبصر). بما لهذه الكلمة من فخامة. هكذا كنت الى زمن قريب قبل أن تلطمني رياح وأمواج ذلك الربيع الملعون لتهب علي رياح اليقظة المتأخرة ماسحة عن ذهني غبار الأوهام فتجعلني أرى الأمور والواقع كما هما لا كما كنت أرغب أو ما كان مسموحا برؤيته من طرف نخبة الكرة السحرية ودهاقنة المصفوفة المغنطيسية المطلسمة. لم أكن آنذاك مؤهل لأرى الوجه الحقيقي والبشع للصحافة التضليلية أو الوهميديا. ولم أكن أميز جيدا بين الوجوه القبيحة والماكرة التي كنت اصادفها خلال رحلتي في مستنقع الوهم ذاك. ثمة كانت تكمن ورطتي.

في لحظة الوداع بالمطار كان مضمون الجدال على صلة بالورطة التي وضعت نفسي فيها. لقد اكتشفت فجأة أننا لم نكن (أنا وهي) لوحدنا داخل المعادلة الوجودية لصحبة طبيعية آمنة، بل كانت هنالك أخرى قد نجحت في التسلل الى حياتنا الثنائية مطالبة بدور وصفة لا تجدر سوى بواحدة. وكانت الأخرى المتسللة تدعي لنفسها صلاحيات لا يمكن لها ان تملكها ولا سبيل لها للحصول عليها. فلقد كانت تنتمي الى العالم الآخر الموازي شأنها شأن الكاتب الآخر. والآن كلاهما أصبحا يطالبان بحقوق وصلاحيات لم أكن لأمنحها أو أتنازل عنها لغيري ولغيرها هي. شريكة حياتي الأصلية والأصيلة. رفيقتي في كل المحطات الحلوة والمرة. كان ظلي الوقح وحده من يعرف لغز ما وقع. وبات على التأهب لمواجهة مع هذا الظل واسترجاع السيطرة قبل فوات الأوان.

ها هو شريط الذكريات يمر علي سريعا وأنا اتأهب للدخول في بوابة الهجرة المتأخرة التي نجحت أخيرا في اختراقها بعدما كانت لي معها محاولات متكررة فاشلة سابقة. لابد لي من التوقف عند إحداها نظرا لأهميتها. كان ذلك في منتصف التسعينيات من قرن الشيطان. وكنا قد ارتبطنا بالفعل وبدأنا في تهيئة عشنا الأسري الهادئ رغم أنني كنت ما أزال في غمرة انغماسي في مطاردة واقتفاء خطوات حلمي العتيق بالهجرة الى الخارج. وسنحت لي فرصة خاطفة ونادرة لخوض تجربة مهنية قصيرة في ايطاليا. فذهبت هرولة بحثا عن وثيقة تمكنني من الحصول على صفة مهاجر رسمي. وهي الأمنية الثانية التي كان ظلي يدفعني للحصول عليها ويسابقني اليها. وكلما لمس مني ترددا وتقاعسا إلا وانفجر في وجهي ساخطا مؤنبا، فيجرجرني من مقهى الى مقهى ومن حانة الى أخرى هامسا لي: اسمع يا مغفل لا خيار لك الا مطاوعتي. دعني أقودك للانطلاق بأحلامك بعيدا الى حيث ترغب وتهوى نفسك. أنظر الى تلك الشواطئ الغربية ما أبهاها. ها هي تلك البلدان الساحرة الممتدة والدائمة الاخضرار والأبنية المرصوصة المنضدة بديعة التنسيق تدعوك لاستكشاف آفاق جديدة رفقة أقوام لا يمتهنون رشقك بنظراتهم أو سلقك

بألسنتهم. هيا لا تتردد ولا تنخدع بصفتك التي لا تجسدها سوى بطاقة تافهة هالتها أكبر من قيمتها، ومتاعبها ومزالقها أسوء وأكبر من أن تستوعبها روحك الفطرية الباحثة عن حياة نقية تتساوى فيها الحقوق والحظوظ.

هكذا ظل يحدثني ظلي الوقح في ذلك المساء البارد من مساءات روما الربيعية الباردة وأنا بصدد التفاوض حول وسيلة تتيح لي فرصة البقاء. كان العرض مغر، ولم أتخلص الا بصعوبة بالغة من ثرثرة ظلي التي لا تنتهي. ثم أتذكر ذلك اليوم الذي رفعت فيه سماعة الهاتف وأدرت رقما خارجيا ليجيبني صوتها من الطرف الآخر. كان صوتا منهكا مترددا بأنفاس متسارعة. قالت لي: اسمع جيدا يا عزيزي. أنا أكثر شخص يدرك حجم أحلامك وقوة رغبتك في مطاردتها مهما كلفك الأمر. لا أحد يستطيع إيقافك أو منعك حتى أنا أقرب الناس اليك. ولكن دعني أخبرك عن مفاجأة عساها تقنعك وفي نفس الوقت أخشى وقعها عليك. إنني أحمل هدية لك. هي هبة من الله الوهاب الينا وموعد قدومها يقترب فلا تتأخر عن الموعد. عد في أقرب وقت وستكون الهدية لك. أما إذا فضلت البقاء وركبت راسك فما عساني أقول؟ خوفي عليك وعلى نفسي وعلى الهدية القادمة الينا من السماء. سارعت الى توديعها مرتبكا بعدما عجزت عن تحمل دموعها ونشيجها عبر أسلاك الهاتف لكنني طمأنتها برجوعي في أقرب فرصة. وما إن وضعت السماعة من يدي حتى انقض علي ظلي وأشبعني لكما ورفسا، وشتما، وتجريحا، وتقريعا. كنت أحاول تهدئته وإخماد ثورته العاصفة مذكرا إياه أن الامر ليس بيدي فهل يعقل ان يرفض مخلوق هبة من الخالق؟ حاول ظلي باستماته ثنيي عن قراري. وبعد طول تفكير قلت له بهدوء أشبه بضربة سكين: من أنت حقا أيها الوقح؟ ألست انت أيضا هبة من الله أم تراك مخلوق شيطاني شرير؟ وإذا به ينهار خائر القوى وكأنما ذبحته كلماتي الهادئة القليلة والحادة كنصل سيف وصعقته كصعق الكهرباء. أخذ يردد متلعثما: ما كان عليك برفع السماعة والرد على المكالمة. المكالمات من تلك الضفة لا تحمل سوى الأنباء السيئة. نظرت اليه شزرا وأجبته: سيئة بالنسبة لمن أيها الوقح؟ إنها هديتي فما شانك أنت؟ ألست مجرد صدى لأفكاري، وخيالاتي، وطموحاتي، وانفعالي؟ إياك أن تتجاوز حدود صلاحياتك والا قطعت صلتي بك وألقيت بك في سلة مهملاتي.

في تلك الليلة ظل ظلي صامتا لا يتكلم معي ولا يقوى حتى على الهمس او اللمز. بل لا يجرؤ على مجرد النظر في عيني. لم اسمح له بمقاطعة افكاري أو اغوائي بحيله ومكائده أو اوهامه. كانت تلك الليلة النادرة من أندر لحظات الصفاء الذهني التي مرت بي في حياتي، عندها كنت اتغلب بسهولة على كل الشخوص المتشاكسة داخلي. كنت استرد خلالها السيطرة على نفسي وزمام شؤوني فأتخذ قراراتي بكامل وعيي وطاقتي وبمحض اختياري. وكثيرا ما كانت قرارات حاسمة وفارقة. وبذلك كانت تتلاشى كل الكينونات الخفية المحدقة وتخمد الانفاس المتشاجرة فتتسابق لكتم لواعجها ومناجاتها ثم تلتف من حولي محملقة بنظرات زائغة مترقبة فحوى قراراتي. أما الظل الوقح فانه يختفي عن الأنظار تماما وينقطع أثره وكأنه لم يكن مسؤولا عن كل تلك الفوضى التي يخلفها من حوله.

صبيحة الغد وبشكل مفاجئ-ليس لي فقط، بل للآخرين الذين بدأتم تعرفونهم الآن- توجهت الى أقرب وكالة للطيران وحجزت تذكرة العودة الى الضفة السفلى من المتوسط. عدت على مضض. وعندما تفقدتها كانت ماتزال منهكة في حمل الوديعة وإعداد الهدية. لكن صدمتها الجميلة بعودتي فاقت توقعاتي. وبينما هي مندهشة بعودتي السريعة كنت أحرك راسي أمامها بشموخ لا معنى له متحررا من ظلي وسيطرته المزعجة. ثم توجهت الى حيث يفترض انه عملي وكنت ممتشقا بطاقتي منتفخا بما تحمله من دلالات وما تفتحه من بوابات وطرق نحو الفرص والامتيازات والمنافع الشخصية. رغم أنها لم تكن تفتح للمغفلين من أمثالي سوى المشاكل والمآزق والمضايقات. فقد كانت تقودني في كل مرة الى أبواب مسدودة وأخرى خلفية ثانوية تماثل تلك الأبواب الخلفية للفنادق والمطاعم والمعامل وباقي المرافق الخدماتية. أبواب وزوايا ضيقة حقيرة مهملة، تؤدي غالبا الى صناديق القمامة المتراكمة وسقط المتاع المنبوذة ومختلف الأشياء الحياتية المنبوذة بما فيها تلك الاشكال الآدمية المنسية والمنفية التي كنت أتعاطف معها بالسليقة. هكذا كان عنوان رحلتي مع بطاقة المهنة التي اخترتها. تضعني وجها لوجه مع ذلك العالم المهمل المنسي. كنت أجد ألفة شديدة مع تلك الأماكن المهجورة والوجوه المتخلي عنها. كأنه قدري الحتمي فأتقدم في زواياه المعتمة بخطوات ثابتة وكأنني صاحب المكان. فأطلب سيجارة من هذا وأناول أخرى لذاك من تلك الاشكال الادمية التي كنت اعتبر نفسي جزء منها وكنت اتقاسم معهم وجبات الأكل البسيطة وأتبادل أطراف الحديث فأطل من خلالهم على عوالم غنية بالمعارف الخفية ما كنت لأحظى بمتعتها وثرائها لو زاغت بي الخطى الى تلك الأبواب المشرعة على الأضواء الصاخبة والضوضاء الملازمة لها، بأشكالها الادمية الانيقة الجذابة. تلك الاشكال المزخرفة الأقوال والسلوك التي كانت تثير في أغلبها نفوري واشمئزازي. عكس ما كان يرغب فيه ظلي. كنت غالبا ما انظر الى ما وراء تلك النظرات البراقة والكلمات المنمقة والمنتقاة وتلك الوجوه البشوشة السعيدة الصاخبة. كنت أتطلع الى ما وراء الأقنعة فأرى الحقيقة ساطعة ناطقة وإرهاصات وتفاصيل لكائنات وكينونات وزواحف لم أتأكد من حقيقة طبيعتها وتجذرها الا بعد ذلك بسنوات. هكذا عدت الى عملي وعادت الحياة الى طبيعتها حتى علاقتي مع ظلي عادت الى سابق عهدها ولم يدم خصامنا طويلا بعدما عاد للتودد الي ومنافقتي. بدأت أتناسى سخطي وحنقي. بعد شهور قليلة توصلت بمكالمة مستعجلة من المستشفى وأنا في العمل. فتوقفت عما كنت منشغلا فيه وأمرت كل أفكاري -ومعها ظلي الوقح- بالسكوت. ثم أطلقت العنان لمشاعري فأسرعت بي الى المستشفى. سابقت خطواتي، قافزا درجتين وثلاثة ادراج دفعة واحدة في صعود، شاقا طريقي وسط ممر المرضى والممرضات والزائرين والزائرات، غير مهتم بصرخاتهم وضوضائهم ولا حتى أنات بعضهم، فانا أيضا كان ثمة صوت يضج داخلي. كنت فريسة لمشاعر متناقضة بين الفرحة والرهبة وأحاسيس أخرى غريبة وجديدة علي أحسها لأول مرة في حياتي وكان صوت آخر يندفع ببالي وذهني وخواطري متسائلا: هل جاء الأوان؟

عندما وصلت الغرفة المنشودة ألقيت نظرة سريعة على السرير حيث كانت ترقد. كانت تبدو كأنها صعدت جبلا شاهقا بلغت قمته بصعوبة وبذلت فيه آخر نفس، ولما وصلت ألقت بنفسها على الأرض لاهثة من فرط التعب ومسحة من العرق النبيل يكسو وجهها، ولكن بريق عينيها المتلألئة بمزيج من الفرحة والدموع لم يخف ملامح الفخر والاعتزاز بقيمة الإنجاز. قبل ان استفيق من دهشة اللحظة وأحول عيني باحثا عن مصدر ما كان يعتمل في صدري ويشغل بالي، رايتها ترفع راسها من السرير حاملة قطعة ثوب بيضاء ناصعة ملفوفة حول كتلة رطبة هشة تنبض بالحياة ثم قالت لي بكل ما تبقى لها من طاقة، هيا خذ. هذه هديتي لك. مددت يدي وانا أحاول ان أخفى ارتعاشها مبديا تماسكا واضح الادعاء. وما ان أمسكت بتلك الهدية بين يدي وألقيت اليها النظرة الأولى حتى اجتاحت كياني عاطفة اشبه بالعاصفة. انها العاصفة المحملة بأولى الرياح الممطرة بالأبوة والتي طوقت نسماتها أجواء دواخلي وانعكست هبائبها ولطائفها على ملامحي. رأيت آنذاك أجمل مخلوق ينظر الي بدهشة وكأنه قادم من عالم مألوف الى عالم مجهول. كانت تنظر لي أنا لوحدي وتفتح عينين واسعتين وتحاول ان تنطق او تهمس شيئا من شفتيها الدقيقتين أو هكذا تخيل إلي وانا في خضم مشاعري المختلطة. كان حالي كحال الذي يدخل اول مرة بلاد العجائب. وجدتني انطق دون وعي مني قائلا: مرحبا بنيتي.... كانت تلك أغلى وأجمل هدية أحظى بها في حياتي. وبعد سنوات قليلة حظيت بهديتي الثانية وكانت تضاهي شقيقتها الكبرى جمالا وبهاء وقيمة. وكأن التاريخ ابى أن يعيد نفسه بأدق التفاصيل تقريبا -ولا أعنى هنا التاريخ المزيف الذي مطرقتنا اضاليله خلال الفصول الدراسية- من مكالمة مستعجلة ومسارعة نحو المستشفى وقفز على الادراج والدرجات واختراق الصفوف دون الالتفات إليها ثم التوقف المفاجئ والاندهاش المتجدد والشعور الدافق بالعواصف والعواطف الجياشة وإرهاصاتها القادمة. ثم تعتدل هي مجددا في جلستها لاهثة منهكة لكن شامخة وواثقة فتقدم لي هديتي الثانية ملفوفة بثوب ناصع البياض. وفي لحظة من اللحظات خارج الزمن أمد اليدين المرتعشتين وأواصل الادعاء بالتماسك فتلتقي نظراتنا. لكن هذه المرة عندما نظرت الي المولودة الجديدة بعينين واسعتين وأغمضتهما بنفس السرعة التي فتحتهما بها، ثم نطقت بصوت خافت لكنه مسموع كان صوتا يشبه ازيز نحلة متقطع. قلت لها جذلا: مرحبا بنيتي...

كانت تلكما أغلى هديتين تمنحهما لي هذه التي تجادلني وأجادلها الآن وأنا متأهب للسفر الى الشاطئ الآخر. رحلة بلا بوصلة. ولم يكن موضوع الجدل سوى الكابوس الذي خيم على حياتنا الأسرية الصغيرة وكنت أنا المسؤول عنه بشكل أو بآخر. كان هذا رأيها. أما أنا فكان لي راي آخر كالعادة. لم يكن ممكنا أن أفصح عنه آنذاك. كنت أعرف أن ظلي الوقح هو الذي وضعني في ذلك المأزق. فهل تراها ستصدق وهي التي عاشت معي طوال تلك المدة دون أن تكتشف أن لدي ظلا له كل تلك السلطة على حياتي وسلوكي؟ ظلا تجاوز نطاق كينونته الشبحية وأصبح خارج الظل. خارج السيطرة.

هكذا كانت حياتي قد استحالت الى ما يشبه كبة الصوف التي تداخلت خيوطها وتشابكت فيما بينها كالخبال في ذلك الصباح المبكر من شهر شتنبر الأغبش.

فك الله خبلك يا عزيزي...

كانت تلك كلماتها الأخيرة قبل أن يبتلعني الممر المؤدي الى الطائرة المتوجهة الى الخارج.

(4)

امتطيت الطائرة بمشاعر متضاربة. متناقضة. وعلى غير المنتظر في مثل هذه المناسبات لم اشعر لا بالفرحة ولا بالانشراح وانا مقبل على سفر بعيد الى عالم جديد يتوج حلم طفولتي. أصبحت أشعر مع بدايات تحققه كيف يمكن أن يتحول الحلم الى كابوس متوحش يحول الأماني الى سراب. بدأ الكابوس يطوقني، انا وظلي. ذلك الظل الذي نشا معي وتطور حتى تغول. وعندما تغول سحب معه وحوشا قاسية من العالم السفلي لا تعرف معنى الرأفة والرحمة والآدمية. كانت ثمة وحوش مماثلة قد شرعت في المحاصرة والمطاردة ساعية لابتلاع ما تبقى لدي من طاقة ونشاط وحيوية وكينونة إنسانية. فكان علي أن أبدي شراسة غير عادية، حتى لو لم تكن من طبيعتي. ورفعت راية المقاومة مدركا في نفس الآن أن أفواج الوحوش ما فتئت تتكاثر وتتقاطر ومنها من أخذ يكشف عن وجهه دون مواربة فعرفت منهم الغريب، والقريب، والأقرب، والأغرب. كانت المعركة تبدو خاسرة بالنسبة لي. رأيت أنه من العبث إطلاق النار على مواكب البوم (موكا). لكن بالنسبة للآخرين كنت بمثابة البقرة الحلوب التي يتوجب الإجهاز عليها بعدما تعذرت استمرارية حلبها. لم أكن من ذلك النوع الذي يلق بسلاحه تحت الضغط تماما كالدون كيشوت (مثلي الأعلى). ولم يكن غريبا على محيطي والمقربين مني أن ينعتوني بالمحارب العنيد والمشاكس البليد. وفي خضم المعارك التي انخرطت فيها، واجهت وحوشا من كل صنف ولون، وحوشا آدمية وأخرى متحولة نصفها آدمي ونصفها الآخر من عالم أخر، وبعضها وحوش فقط بلا صفة محددة. بينما الأخرى مزيج من الوحوش الآدمية والأبالسة. أما أخطر الوحوش وأشرسها فقد كانت مجهولة المصدر والكينونة. مجرد مسوخ شائهة لم أكتشف ورطتي معها الا متأخرا، ولم أستوعب حقيقة المواجهة الا عندما استيقظت ذات ليلة من كابوس مريع وكان عدد الأصوات المتشاكسة داخلي أكثر من أن تتحملها نفس بشرية واحدة. كانت تلك الأصوات ومنها من هو غير آدمي تصرخ وتطالب بنصيبها مني ومن ظلي الذي بسببه دخلت أزمنة وأمكنة مجهولة وصارعت أهوالا لم يسبقني اليها أحد أو (حتى لا أبالغ كثيرا) سبقني اليها قليل من الناس. ولم يكن لي أدنى خبرة سابقة بتلك العوالم. لم تكن لدي لا النية ولا الموهبة ولا القدرة على التعامل معها. إنها وبغض النظر عن حقيقة ما يصطلح عليها (انكارا أو تأكيدا) لم تكن يوما تستهويني او تثير اهتمامي. لم أكن اسعى ولو على سبيل الفضول لفهم غوامض البعد الآخر. برزخ الثقلين، أو العالمين المتجاورين المتنافرين. لم أكن لأدركه أو أعقد العزم على الاقتراب منه بتاتا حتى داهمني واقتحم حياتي وصلتني تهديداته وأعقبتها هجوماته الغريبة. وقتها بدأت أنتبه وأتأمل وسط ضباب من الحيرة والارتباك وأحاول

الفهم رغم مشاعر الشك وعدم التصديق. لكنني بشكل ما ومن قلب المعاناة تمكنت من تلمس أولى الخيوط. كان تعميق البحث امرا حيويا وضروريا للذود عن نفسي وعن أسرتي وعنها. وكان لابد لي من التصدي لهذه الهجومات، وفك الحصار الذي بدأت المخلوقات المتوحشة الشريرة تنسجه من حولي وتقوم به عن سابق إصرار وترصد. لقد أصبحت مستهدفا الآن. ولا مراء في ذلك. كان حلف (موكا) أو محفل البوم الشيطاني يتكون مما يلي: مخلوقات بشرية لها ارتباطات شيطانية، تقودها ساحرا ت وذاعرات ومشعوذين. ومنهم شياطين الانس يمتهنون السحر والشعوذة وهم ضالعون في شتى أنواع السحر متعدد الألوان والأصناف. ثم شياطين من أمم الثقلين الثانية، تلك الساعية دائما الى السيطرة واقتحام البعد الإنساني من خلال الفئتين الأوليتين، وكل المتعاملين معهم. لقد كانت تمتلك طرقا خاصة وغريبة للتواصل ولديهم أجهزة مخابرات مشتركة مدربة تدريبا عاليا وخارقا على التجسس. وهذه الأجهزة تعتمد من ضمن ما تعتمد على القرناء وآثار الظلال. واعتمادا على مئات التجارب والوقائع الموثقة والمسموعة والمرئية والتي تزخر بها كبة الصوف المتشعبة المخبلة التي صارت جزء لا يتجزأ من ذاكرتي وكينونتي ومن خلال استخلاص العصارة مما يقبله عقلي ووعيي وفطرتي، بدأت لأول مرة في حياتي أقف على معالم وجود فعلي لعالم سفلي موازي خبيث. أدركت أيضا بأن امكانياتي على ضآلتها لا بد أن تؤدي بي الى التصادم مع هذا العالم السفلي من ذلك البعد الذي يديره الشيطان وجنوده. والغريب أنني لم أكن في السابق مباليا بخطورة الامر ولا منزعجا من كثرة الحكايات (السخيفة) والروايات المفرطة التهويل. كنت أتفهم أن أغلبها نتاج ثقافات سائدة يكتنفها الجهل والتجهيل ويوجه منتوجها عادة للأطفال الصغار على سبيل الترفيه او التخويف ولجمهور النساء والرجال العاكفين والخائضين في تلك المستنقعات، لكن ذلك الذي بدأ يحصل لي ويحاصرني بدا لي أمرا آخر مختلف. شيئا واقعيا فظيعا وملموسا، وآثاره، وأضراره محسوسة، ومروعة.

ليست وهما اذن أو توهما أو خيال شاعر يا رفيقي. قلت مخاطبا ظلي. فرد عليه بطريقته الماكرة:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار.

عزوز شخمان

المرأة التي رممت شظايا رجل

المرأة التي رممت شظايا رجل

الأيام والليالي بدونها

الجزء الأول

عزوز شخمان

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز استخدام أو تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن خطي مسبق من الكاتب أو الناشر.

الفصل الثالث

نبتة الظل

(5)

إن لم تكن هي حبيبتي فمن عساها الجديرة بحبي؟ ومن سواها تستحق؟

عدت الي البيت المعتم الكئيب وأنا أشد كآبة. انها المرة الأولى التي أعود فيها اليه ولا أجدها في انتظاري. لا أثر لها الآن. لا عطرها ولا رائحتها. ولا حتى ظلها. وكم تمنيت لو تمكن من التخلف عنها للبقاء بجنبي ليؤنس وحدتي. أين هي الآن؟ وأين هي حيويتها ونشاطها وحضورها الذي يملأ كل ارجاء البيت على ضآلته؟ أكاد أراها الآن وهي تنتقل برشاقتها كالنملة الشغالة لا يتسرب لنفسها الملل ولا الكلل. رغم طبيعة الأشغال الشاقة التي تعودت على القيام بها بابتسامة راضية وتطوع نادر ونكران للذات. لا تترك زاوية من البيت ولا أداة من أدوات المطبخ أو لباسا من الألبسة ولا غطاء من الأغطية الا واشبعتهم كنسا، ومسحا، وترتيبا، وتنظيفا. مرة ومرتين وثلاث. لا تطمئن أو تتوقف أو يهدأ لها بال حتى تتأكد بأن النتيجة فاقت التوقعات ورغم ذلك كثيرا ما لم تكن راضية على النتيجة. فتعاود الكرة كرتين حتى تكاد تشتكي منها الأواني والاثاث وسائر أركان البيت. إنها مملكتها الصغيرة على بساطتها وتواضع تجهيزاتها وتدني قيمة أثاثها. كل ذلك لم يمنعها من اعتبار عالمها متكاملا ونموذجيا مادام يستوعبنا ويحظى بقناعتنا. لم تكن تنظر الى القيمة المادية لما نملك أو بالأحرى لما لا نملك، بل كان همها منصبا على كيفية وضع هذه المقتنيات المتواضعة في الموضع الصحيح وترتيبها وتأثيثها التأثيث المناسب. وهنا تكمن العبقرية لديها في كيفية تحويل شيء تافه القيمة الى ديكور أعلى قيمة وأكثر أهمية مما هو عليه. طبعا كانت لها أمانيها الصغيرة وأحلامها المعقولة ورغباتها الدفينة في توفير أثاث أفضل وربما باذخ وأدوات وتجهيزات تضاهي بها على الأقل معارفها وصديقاتها على قلتهن. لكنها لم تكن تفصح عن ذلك أبدا ولم تكن تشكو أو تتذمر. كانت على دراية بواقع الحال. ترضى بالموجود وتقنع بالمتوفر. كان يكفيها وجودي ويملأ عينيها البقاء بقربي. بصخبي المعهود ومزاجي

المتقلب وعصبيتي المفرطة فضلا عن غيبوبتي الوجودية المتفاقمة وذهولي الفطري المتكدس من زمن الطفولة. كان يكفيها كل هذا ليؤثث وحدتها ويملا فضاء مملكتها الخاصة. كانت طويلة البال. جبارة في صبرها وتماسكها. كما كانت لحوحة في انتظارها لكلمة طيبة مني أو ابتسامة قد تأتي أو لا تأتي. أو حتى مجاملة صغيرة قد تنتزعها على مضض. كنت أنا في خضم هذا هو أنا. في غلظتي وغباوة طبيعتي الموروثة المتكلسة بتراث القرون والتي ران عليها غبار الادعاء الرجولي المفرط في مبالغته بالاعتداد بهراء ذكورة أو فحولة لا نملكها أصلا ولا نستحقها. كنت من فرط غباوتي وغفلتي أغالب نفسي حتى لا أتنازل وأضعف لكي ألبي رغبتها وأمنحها جزء تافها يسيرا من مستحقاتها. وحتى في اللحظات التي كنت أضعف فيها وأتنازل وأستجيب لانتظاراتها ببسمة أو مجاملة أو كلمة طيبة كنت أعقبها في اللحظة الموالية بفعل أو رد فعل معاكس وكأنه هجوم مضاد على إحدى المواقع التي فقدتها من غير إرادتي. كنت أمسح كل اثر لابتسامة أو كلمة طيبة في وقت قياسي اما بملاحظة سخيفة، او جدل عقيم او تعليق سقيم على فكرة اقترحتها او راي ابدته واقتنعت به. كنت دائما هو صاحب الفهم الرصين والتحليل المتين والرأي القويم. ومن جهالتي وفظاظتي كنت أمارس عليها وعلى رأيها اسقاطات الموروثات البيئوية الجلفة الممجوجة. اسقاطات القوامة بمفهومها الخاطئ الضارب في الرعونة.

(6)

انها الليلة الأولى على مغادرتها. ولأول مرة منذ انتقالنا الى هذا البيت الصغير أقوم بجولة في اركانه والوقت تجاوز منتصف الليل. وكأنني أدخله لأول مرة في حياتي. بيت صغير من غرفة نوم واحدة لها نافذتين تطلان على الاخضرار المحيط به ثم غرفة جلوس واسعة نسبيا وعلى اقصى يمينها يركن مطبخ ضيق او شبه مطبخ يبدو كامتداد لغرفة الجلوس بقطره الذي لا يتعدى بضعة اقدام. هو مطبخ منكمش على نفسه، ولكن مساحته الضئيلة ونحافة مظهره هو أكثر ما يثير حنقها. المطبخ هو مملكة المرأة الشرقية بالأساس والمرأة المغربية بامتياز. وعدم توفير مطبخ ملائم لها يعتبر قمة الإهانة. كانت الكوزينا هاته لا تتوفر سوى على الحد الأدنى المطلوب للطبخ والتبريد والتخزين والغسيل الخاص بالأواني. كانت كل الأجزاء متلاصقة بعضها ببعض ومتزاحمة. ثلاثة اقدام سعة المطبخ كانت كالقبر المزدوج. الثلاجة ملتصقة بطاولة حجرية عليها مايكروويف وفي الضلع الثاني طاولة او منضدة ثانية خاصة بصحن غسل الاواني التي تلتصق بدورها بالفرن الرئيسي أوفن. ومن فوق على الجانبين تمتد دواليب خشبية ملتصقة بالحائط مخصصة للتخزين. في هذه الزنزانة الشبيهة بمستودع الأموات كانت تقضي معظم وقتها. تتحرك برشاقة في مساحة ضيقة كالفأر في المصيدة لتعد لي أشهى الوجبات لا أظن أن الرئيس الأمريكي نفسه يحظى بما يضاهيها لذة ومذاقا. لهذا ترى أمثالي لا نبالي كثيرا بأصحاب المناصب العليا. لقد كنا ننعم بعيشة داخل منازلنا تضاهي أصحاب الجاه ان عليهم دون ام نتحمل اعبائهم واوزارهم. وربما كنا أفضل منهم حالا إذا ما وضعنا في الاعتبار حجم الضغوط والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم وأيضا حجم اللعنات المنصبة على أغلبهم لأسباب تعرفونها مثلي أو أكثر مني. أمثالنا ملوك بدون تيجان ولا أبهة او بهرجة ودون حاجة لمواكب ومراسيم وطقوس جبروتية. كل ذلك بفضل ملكة البيت الحقيقية وهي المرأة من طينتها. إنها حالة العلاقة التي كانت الى عهد قريب سائدة في ذلك

الشرق الأوسط الكبير والغير في نفي الآن أو المتصاغر. مثل تلك المرأة هي من جعلت الرجل البدوي العقلية الاصلف الأجلف الذي يمتلكه إحساس بالاكتمال الإنساني الذكوري وبالقدرة، والسلطة، والسطوة، والسيطرة. ولكن ما جزاءها هي هذه التي توجتنا بمملكة بلا منافس سوى جزاء سنمار؟ هو اقصى ما تحظى به المرأة تلك التي تتوج رجلها ملكا فيجازيها كما تجازي الملوك شعوبها؟ فهل أنا مختلف عن هؤلاء؟ قطعا لا. مهما بذلت من جهود ومهما حاولت او ادعيت فلا أظنني سأكون مختلفا. وكيف لي أن أكون وأنا لدي تقريبا نفس الحامض النووي ومن نفس البيئة وبنفس العقلية.

واصلت جولتي في المطبخ على ضآلته. كانت جولة بالعين والفكر والذاكرة. وقد استغرقت وقتا طويلا ولا بد لي أن أفسر لماذا؟ كنت أتهيأ لفتح الثلاجة والرفوف الخشبية ذات الأبواب المحكمة التي تشكل مخازن متنوعة. فهل تدرون ماذا وجدت؟ كانت الثلاجة مكتظة لا بما تمتلأ به الثلاجات عادة، بل بأطباق شهية مطهوة ومطبوخة مسبقا ومنها وحدات مجزأة بقطع صغيرة مرتبه داخل المبرد الفريجو. كانت هي أدرى الناس بطباعي في الاكل وقلة استساغتي للأطعمة العصرية السريعة المشبعة بالمواد الحافظة والتي تفتقد لشروط التغذية السليمة فهان عليها أن تتركني محروما من تذوق أطباقها الشهية فقامت بتخزين ما استطاعت تكفي لأسابيع متعددة. حتى الخبز الذي دأبت على عجنه واعداده بيديها تركت لي فائضا منه بالإضافة لعدة أنواع من الحلوى والكعك الشهي. وما هذا سوى نموذج مصغر لإحدى مراحل السنوات الشداد العجاف التي تقاسمتها معي في زمن الهجرة والإقامة. هذه الفترة التي أمضيت الجزء الأكبر منها في غيبوبة وجودية قسرية لا زلت أحاول فك الغازها وأسبابها الحقيقية أما الجزء الآخر فقد امضيته منكمشا في قوقعتي طوعا وكرها وعندما انتبهت الى نفسي وجدتني منغمس في رحلة توهان جديدة وهذه المرة في جوف الأرض وليس على سطحها.

(7)

الساعة تشير الى الواحدة ليلا. انتقلت الى الحمام. كل شيء مرتب ونظيف لحد اللمعان. كل أداة من أدوات الحمام مرتبة في محلها. ومنسجمة مع الديكور العام بما في ذلك فرشاة اسناني التي تتغير بانتظام دون أن تتغير عادتي في استعمالها الا فيما ندر. فأنا قلما أمكن الفرشاة من أسناني وأفضل عليها يوميا المضمضة بالماء وبعض المنكهات الطبيعية. اتجهت صوب الكلوزيت او مخازن الثياب والى جوارها الرفوف الخاصة بالكتب. طبعا كلانا يقتسم الجزء الخاص بالملابس مع امتياز لها في هذا الجانب. ولعله الامتياز الوحيد الذي تحظى به في هذا البيت. وكنت بالمقابل استحوذ على المساحة المخصصة للكتب بما فيها المكتبة الحائطية. بل حتى الجزء الأسفل من دولاب الملابس الخاص بي كدسته بعلب وكراتين الدفاتر والأوراق الدراسية والشخصية التي تراكمت عبر السنوات الخداعات حتى أضحى من المستحيل فرزها وفحصها وغربلتها. وطبعا موقفي محسوم في هذا الجانب. لا تفاوض على كتبي وأوراقي حتى تلك التي تبدو تافهة وليس فيها سوى خربشات وتفاصيل يومية صغيرة. أحب الاحتفاظ بها وادخارها كما يدخر البخيل قطعه النقدية الصغيرة بيني ونيكل وفرنك. كان هذا خطا احمر ومنطقة محظورة وملكية ممنوع مسها او تحريكها من أماكنها. وأغلب المعارك التي خاضتها وأشعلتها ضدي كانت منى هذا القبيل. كانت كلما حاولت التخلص ولو نسبيا من كل تلك الفوضى التي انشرها هنا وهناك فتبدأ في ترتيب تلك الكتب والأوراق وتضعها في أماكن مختلفة لا أعرفها ولا فتندلع المعركة المؤجلة. كنت أثور ثورة عارمة كلما احتجت الى ورقة او وثيقة فلا أجدها في مكانها. كانت هي تتحمل عواقب مزاجي السيء وتحرص بعدها على عدم اثارة حفيظتي مرة ثانية. وكان يحدث أحيانا ان أبدى استعدادي للتطوع فاعرض عليها خدماتي لمساعدتها في أعباء المنزل كما يفعل الرجال المتحضرون فأبدا في الانتقال هنا وهناك في حركات بهلوانية تمثيلية أكثر منها فعالية. وكلما حاولت التدخل وإعلان نيتي في

المساعدة في اعمال الطبخ او التنظيف فكانت تتدخل بهدوء وحسم وتكلفني بأعمال هامشية مثل حمل الملابس الى المغسلة او القيام بكنس صوري امام باب البيت أو تقديم الطعام للطيور. أما اذا اجتهدت وقمت بطي الفراش والاغطية فإنها كانت تعيد ترتيبها مرة أخرى وفق لمسات صارمة خاصة بها. وربما أهم انجاز كنت أقوم به هو مرافقتها للمتاجر والمولات ومحلات البقالة، ولكن كنت لا أفقه في شؤون الخضر واللحوم والمواد الاستهلاكية الأخرى فكنت أقضي نصف الوقت خارج المول والنصف الآخر داخله لمساعدتها في دفع عربة المقتنيات. ما عدا ذلك مهما ابديت نيتي للمساهمة في الأعباء كانت تناشدني الا أتدخل في اشغالها لأنني لا أزيد الأمور الا تفاقما. يكفيك المهام الموكلة اليك وإذا احتجت الى الاستعانة بك فإنني لن أتوانى عن ذلك. لكنها نادرا ما كانت تفعل. كانت تفضل ان تراني جاسا وراء جهاز التلفزيون لمشاهدة مبارياتي المفضلة في كرة القدم أو متابعة دراستي الجامعية المتأخرة. وأحيانا كنت اتجمد وراء جهاز التلفزيون لساعات طويلة في محاولة للبحث عن ذلك العمل القار واللعين الذي يأبى ان يأتي رغم عشرات ومئات الطلبات التي كنت أحرص على ارسالها من خلال البريد الالكتروني وتصفح المواقع الخاصة بطلبات العمل. وفي كل مرة كنت أقوم بتحديث سيرتي المهنية بما يتلاءم مع متطلبات سوق العمل. ولكن عن أي عمل اتحدث؟ فمعظمها لا يروق لي او لا أروق لأصحابه. معظم الاعمال المعروضة هي شبيهة بالأعمال المنزلية من كنس وطبخ وغسل وتنظيف وغرها من أعمال السخرة وانا الذي أفنيت جل عمري وسط الكتب والأوراق كفأر الكتب. فمتى كانت فئران الكتب تتقن الاعمال المنزلية؟

(8)

الثانية صباحا. اتجهت الى كراتين وعلبات الكتب وبدأت أفرغ محتوياتها واقلب في مضامين الوثائق والأوراق والدفاتر. يا له من ركام عجيب؟ افرغت كل المحتويات وسط غرفة الجلوس على شكل كومة كبيرة كأنها كومة من النفايات الهائلة. يا له من كوكتيل من كل شيء؟ مئات الكتب والدفاتر الصغيرة والمذكرات المتناثرة في فوضى عجائبية أمامي. تراجعت الى الوراء مذهولا من هذا الركام الذي تسببت فيه وخيل لي انه بركان خامد على وشك الانفجار وقريبا سيبتلعني بمحتوياته الورقية هاته. وبعد دقائق من التفكير بدأت محاولاتي الأولى للتخلص من كل ما هو منتهي الصلاحية منها. كانت تلك نصائحها من قبل ولم استوعبها سوى اللحظة. شرعت في فحص محتويات مذكراتي التي كانت مشتتة مثل ذهن صاحبها. ويا ما أكثر ما وجدت من كتابات، وخواطر، وأفكار، وأشعار. كتبت فيها عن كل شيء. ويا ما أقل ما وجدت من أوراق أو كلمات مخصصة لها هي لوحدها. لم أجد سوى وريقة يتيمة ضائعة بين الأوراق والمدهش انني كنت كتبتها قبل ثلاث سنوات في ظروف مشابهة لما يحدث اليوم في أعقاب سفرها الى مسقط الراس لزيارة عائلتها. وهذه هي الاسطر المتواضعة التي جادت بها قريحتي آنذاك:

ها قد سافرت زوجتي

رفيقتي

ها قد غادرت صديقتي

حديقتي

عزوز شخمان

تاركة فراغا

في مهجتي

ها قد حركت موجا

في بحر غربتي

ها قد خاصمتني ووحدتي

وغربتي

ووحشتي.

حتى في هذه الكلمات البسيطة بيني وبين نفسي لم تحض مني بتلك الكلمة الوحيدة التي ظلت تتلهف لسماعها مني. كلمة حبيبتي. فإن لم تكن هي حبيبتي فمن تراها تستحق؟

الساعة الثالثة صباحا من هذه الليلة الطويلة التي لا طائل منها. مرت خمس ساعات على اقلاع الطائرة التي حملتها بعيدا عني صوب الضفة الأخرى من الأطلسي. هناك حيث تجثم بلادي مسقط رأسي وآبائي وأجدادي. تلك التي كلما تذكرتها الا وقال لسان حالي على لسان الشاعر:

بلادي وان جارت علي عزيزة أهلي وان ظنوا علي كرام

بلادي منبع طفولتي ومسرح عنفوان شبابي التي لازلت أرضها المعطاء وخيار أهلها على يحتلون جزء هاما من قلبي رغم ان شرار أهلها على قلتهم هم حراميوها ولصوصها ونصابوها وناهبيها الذين أفرغوا جزء هاما من هذا الحب والتقدير. وجاءت هجرتي المتأخرة الى أمريكا لتشطر قلبي شطرين. كأنني فلتة من فلتات الطبيعة. كائن بقلبين اثنين. يحتضن ارضين ومشاعري وافكاري ممزقة بينهما وتجاهد للجمع بينهما في توليفة مستعصية. بلاد المولد والمنشأ والحياة شبه الكريمة الى حدود الربيع الأسود الداهم. وبلاد المأوى والملاذ بعد ذلك. أمرا أحلاهما مرز البقاء والهجرة؟ أم العودة والبقاء؟ أحمل في قلبي حب وطنين. فهل نستطيع أن نحب امرأتين في نفس الوقت؟ أحمل عبء شعورين حلوين ومريرين. قلبي ممزق بين وطنين. في كلا الوطنيين تظاهرات ومظاهرات شاركت فيهما. في المرة الأولى وفي أولاهما تظاهرت ضد سياسة ثانيهما وفي الثانية تظاهرت ضد سياسة أولاهما. لقد تظاهرت معهما وضدهما في زمنين مختلفين ومتناقضين. وفي كلتا الحالتين كنت مخلصا مع نفسي وفيا لمبادئي الإنسانية

الصرفة. بلادي الأولى ماتزال عزيزة علي حتى ولو جار علي بعض شرارها أما بلادي الثانية فإن معزتها حديثة ونابعة من خيارها ولأنها أجارتني من ظلم أولئك الذين جاروا علي وعلى قومي واهلي. فماذا عني اليوم؟ هل ما أزال مقتنعا بالشعار القديم الذي يقول: قطران بلادي ولا عسل البلدان؟ لقد غيرت مساري واتخذت قراري حددت مكانا بحجم كرامتي لا بحدود ما يملأ بطني ويطفئ رغباتي. كرامتي هي التي حسمت الاختيار والانتماء. ومع ذلك ما يزال قلبي يحمل في سويدائه بصمة وطنين. بقدر ما أحب أناسهما الطيبين البسطاء المكافحين المثابرين والصابرين بقدر ما أمقت وأحتقر شرار سياسييه وخاصة الافاقين منهم والنصابين وهم أولئك المتواجدين في قمة الهرم. أدرك انه في كلا الوطنيين سيأتي منهما من سيخونني لمجرد حبي لكليهما ولن أتوقف عن ذلك ولن أتغير.

(9)

الخامسة والنصف صباحا. موعد آذان الفجر بتوقيت أرلينغتون. بالأمس فقط ايقظتني لأداء صلاة الصبح وهي التي غالبا ما تفعل ذلك. لكنني في هذا الفجر الأول بدونها لا زلت وحيدا أناجي نفسي واسترجع الذكريات. اليوم أنا الذي أيقظ الفجر وأنا الذي سأنتظر قدومه. فماذا عن قدومها؟ لست متأكدا متى وكيف سيكون قدومها ممكنا بعد الذي حدث؟ من اليوم أنا الذي سأقوم بالأشغال المنزلية التي تعودت أن تقوم بها بانتظام بطول سنوات العشرة الطويلة بيننا. فاين كنت قبل اليوم؟ ألم أكن كالنائم المغفل على قلة نومي؟ ألم أكن كالهائم مثل البهائم؟ في غيبوبة تأملاتي الواهمة؟ وفي أحسن الأحوال منزويا في شرنقة غروري ونرجسيتي المتغطرسة؟

السادسة صباحا. ثمان ساعات مرت على سفرها جوا، ولكنها حاضرة معي هنا أيضا في وحدتي وغياهب غربتي. فهل من دليل آخر أوضح من هذا على تعدد الابعاد والأكوان وتوازيها؟ وعلى حرية وسلاسة انتقال الأرواح بين الزمكان؟ هي الآن على أهبة النزول في الضفة الأخرى. وها أنذا أسترجع اللحظة آخر وصاياها قبل المغادرة. وفي المجمل أوصتني خيرا بثلاثة: نبتة وطائر ثم أنا. شددت في البداية على ضرورة الاعتناء بنبتة نادرة اسمها نبته الظل التي لا تصمد أمام اشعة الشمس حيث كلفتني بسقيها والتعهد برعايتها يومين في الأسبوع على الأقل ويستحسن ان يكون كل اثنين وخميس. وها أنذا أحاول أن أخمن لماذا اختارت هذين اليومين بالضبط دون سواهما؟ أعلم أنهما اليومان المفضلان للصوم. وهي كثيرا ما تقوم بصومهما تطوعيا وكثيرا ما كنت أقرر مشاركتها في الصوم ونادرا ما نفذت قراري ما عدا في شهر رمضان اين تكون طاقتي الجسدية والروحية أعلى من المعدل السنوي وتكون بوصلتي الدينية في أبهى تجلياتها. عندما اصوم خارج أوقات رمضان أحيانا أشعر بتعطل حواسي ويتشلل تفكيري فأعاني من الكسل والوهن وبعدم الرغبة في القيام باي نشاط ما عدا القراءة. أما عندما اضطر للخروج من البيت فنادرا ما

أنجح في التوجه الى الشغل أو الدراسة في كامل مزاجي. ولكن لم كل هذا الإصرار منها على رعاية نبتة الظل؟ آه بدأت أتذكر. في السنة الماضية زارني أحد من قلائل ما تبقى من أصدقائي رفقة زوجته قادمان من ولاية واشنطن وكانت هديتهما هذه النبتة العجيبة وبدأت زوجة صديقي فيليبينية الأصل تشرح لنا مزايا النبتة العديدة ومن ضمنها أنها تجلب الحظ الحسن وتعيد لكل بيت تدخل اليه حيوية وشبابا متجددين كما تجدد مشاعر الحب داخل الاسرة، ولكن بشرط واحد هو ان يتولاها أفرادها بالرعاية والسقي مرة او مرتين في الأسبوع. منذ ذلك اليوم دأبت على معاملة النبتة بحنو وحدب وكأنها واحد من افراد الاسرة. فماذا عني؟ يؤسفني أن أعترف بلا مبالاتي. فلم ألق بالا بما قالته زوجة صديقي واعتبرت الامر مجرد مجاملة أو حديث نسوة لا ينطلي على أمثالي. لكنني أقوم الان بسقي نبتتنا العجيبة مع اطلالة هذا الصباح الاستثنائي فاليوم يصادف الاثنين سبحان الله. يا للمصادفة؟ المعجزة وقعت وكلام زوجة صديقي لم يكن عبثا؟ كان صحيحا ودقيقا. وأعطى نتائج فوق المتوقع حتى في قمة تفاؤلي ما كنت لأصدق ان التغيير يتم بمثل هذه السرعة وبتلك الطريقة. والدليل هذه الحيوية التي اشعر بها والاحاسيس التي تحيط بي وتستيقظ داخلي في اعقاب غيبوبتي الوجودية الطويلة. فهل كان الأمر يحتاج لكل تلك السنين حتى أدرك هذه الحقيقة؟

سقيت النبتة المعجزة فماذا بعد؟ تذكرت. علي الخروج الى الجوار وارواء غليل كائنات لا تقل حيوية واعجازا من النبتة. انها الطيور المجاورة لمنزلنا. والتي تعرفت عليها بفضلها. سكبت الماء ونثرت الفتات في الساحة الخلفية وتركتها وجبة فطور التفت من حولها بضعة طيور بحذر.

بدا ضوء النهار يتسلل الى غرفة الجلوس من وراء ستائر النوافذ وانا لازلت راسخا في مكاني الذي انغرست فيه طوال الليل. الساعة الآن تتجاوز السابعة صباحا. ولا أثر لها ولا خبر. يا للهول كنت أعتقد في لا وعيي أنها ستظهر في أي لحظة وتعلن عن وجودها. ربما ستطرق الباب وستقول لي ان سفرها كان مجرد مزحة أو دعابة؟

(10)

عدت قبل قليل من جولة المشي الصباحية التي تعودت أن أصاحبها فيه. عندما صارت ملزمة بالمشي المنتظم يوميا في السنة الماضية وكانت تستعد لأجراء عملية الجراحية على لاستئصال المريء أو المرارة (بالشدة) باللهجة المحلية المغربية. والتي خضعت لها بالفعل في شهر ابريل المنصرم. المرارة بدون شدة هذه المرة هي مذاق لاذع يعكس طعم المعاناة الذي تذوقناه سويا لمدة طويلة وخاصة هي. لأنني كنت أمنحها أحيانا بعضا من نصيبي من هذه المرارة التي تحولت الى مرارتين. فلم يكن غريبا أن تخضع في الأخير لعملية جراحية لاستئصال هذه المرارة دفعة واحدة. ولعله من حسنات قدوم العام الجديد 2019 رغم أن شهوره الأولى كانت أشد نقمة ووبالا على كلينا من باقي السنوات السبع الشداد. من حسناته أن مرضها وحالتها الصحية والمعنوية جعلتني استفيق من غيبوبتي وأنفض عن ذهني ونفسي غبار سنين الوهم والغفلة المتراكمتين. فأصبحت أنظر لهذه الانسانة النبيلة التي رافقتني في سرائي وضرائي طول هذه المدة فيما كنت أنا صاحب الظل الوقح أظهر واختفي في مسراتها ومضراتها بذريعة انهماكي في أسخف مهنة في العصر الحديث والتي ابتلعتني وابتلعت معها انسانيتي. هذه المهنة التي أصبحت أنعتها بمهنة السخافة والتطبيل والتضليل. أدركت الآن ما فشلت في ادراكه من قبل وتمكنت من فك لغز طالما حيرني فقد كنت اسعى ولا زلت الى العثور على مفتاح او محور أبني حوله روايتي الأولى والأخيرة. رواية أتوج بها رحلة عمر طويلة من الهباء والغباء. رحلة متشظية الأجزاء والفواصل. شظاياها شتات متناثر متنافر لكنه حاد الملمس وجارح النتوءات. هو سقط من الأحداث والوقائع والصدف المتنافرة والأفكار المشتبكة والمتشابكة غير أنني هنا والآن أجدني ألامس الحل الأمثل. نعم انها هي. ومن سواها؟ إنها مفتاح الرواية، بل إنها كل الرواية واصلها وبطلتها والمؤثرة الأساسية على سير احداثها وتطوراتها والمستحوذة على على حبكتها. أجل هي وليس أناز فأنا

صاحب الظل الوقح ظللت منغمسا في غفلتي وغطرستي مصدقا نفسي وظلي بانه لا أحد غيري يستحق البطولة المطلقة بدعوى أنها سيرتي الذاتية وسيرة حياتي. فمن تراه ينازعني في حقوقي وملكيتي الحصرية؟ من ينافسني في استحقاقي دور البطولة في تأثيث الوقائع واستعراض أمجادي وانجازاتي وباقي ترهاتي. لكنني اكتشفت قبل فوات الأوان أن ما كنت مثل أولئك البلهاء من حاملي الرتب العسكرية العالية الذين يتسابقون لتوشيح صدورهم بالنياشين الفخرية بينما هم مستغرقين في ملئ بطونهم المنتفخة بينما رصيدهم الحربي فارغ. كان ذلك وهم وانقضى. أما الآن ففي قمة وعيي الوجودي وصفائي الذهني. في هذا اليوم الاستثنائي تمكنت من الجمع بين فجرينز من الفجر الى الفجر. وعلى امتداد هذا الزمن الفريد عشت وعاينت حدثا كونيا نادرا قلما يحظى به إنسان ويستوعبه على حقيقته. لقد واكبت تعاقب الليل والنهار مرتين متتاليين وتابعت بروز الخيط الأبيض من النهار والخيط الأبيض من الخيط الأسود من الليل والعكس. وهاهي عقارب الساعة تدنو من الساعة الثامنة صباحا. وقد بدأت حركة السكان تتصاعد ضجتها من حولي شيئا فشيئا ممتزجة بتغاريد الطيور وهي تتحلق حول وجبة الفطور معدة من طرفها حصريا باسمها.

ها هو النوم بدا يداعب جفوني وأنا اغالبه في انتظار رنين الهاتف الذي سيحمل صوتها. وما أصعب الانتظار. هل وصلت؟ أو لم تصل بعد؟ هل ستتصل هذه المرة كما فعلت في السابق في أسفار مماثلة كانت تداوم على الاتصال مباشرة بعد الوصول فيما كنت في الغالب إما غارقا في نومي المتقطع أو منغمسا في غيبوبتي الوجودية. وكانت أحيانا تلح في الاتصال حتى أجيبها من وراء السماعة على الطرف لتقول لي: ها أنذا قد وصلت بحمد الله. كنت اتلقى النبأ بارتياح طبعا، ولكن كنت أعتبره أمرا عاديا بدون ميزة خاصة. وكذلك الحاحها واخبارها لي بوصولها. كان كل ذلك عاديا من قبل بالنسبة لي. أما الآن فلا. الأمر مختلف هذه المرة. لا أدري كيف أعبر عن ذلك؟ بدأت أرى الأمور بمنظور جديد. هل انكشف الغطاء وزال الغبش؟ الحقيقة الصارخة هي أنني الذي كنت غير عادي وغير طبيعي أو واقعي في تصرفاتي وردود أفعالي. بل كنت بالأحرى أقل منى عادي واقل من مستوى تلك اللحظات. أنا هنا أتحدث بشفافية لا مراء فيها ودون ادعاء. لست من هواة جلد الذات وتقريعها مجانا. لا لم أعد مهتم فقد قررت مسح تاريخي الشخصي والاجتماعي. التاريخ المزيف والمليء بالمغالطات مع النفس ومع الغير. بل مسحت مع هذا التاريخ كل ما رافقه وأحاط به وبي من ذوي المشاعر الزائفة المسطحة وكل الأغاليط البشرية التي تحررت منها بصعوبة. كما تحررت من أولئك وهؤلاء ومن أثقال نفسي ومن سيطرة ظلي الثقيل. أصبحت متفرغا لإكمال الرواية بعدما نجحت في العثور على أهم عناصرها وهي البطل. انها هي. نعم هي وليس أنا؟

لكنها لم تتصل بعد والهاتف لم يرن والنوم يهاجمني ويغالبني. وفي اية لحظة سيبتلعني. لا شك ان النوم قادم وأنا أغادر. وها هو القلم يكاد يسقط من بين أصابعي. والساعة تشير الى التاسعة صباحا بتوقيت واشنطن العاصمة. فمتى ستتصل؟

المرأة التي رممت شظايا رجل

الأيام والليالي بدونها

الجزء الأول

عزوز شخمان

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز استخدام أو تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن خطي مسبق من الكاتب أو الناشر.

عجرفة قلم

هذه قصة امرأة حقيقية. هي قصتها وقصة كل امرأة حقيقية بمعنى الكلمة. وكما ينبغي أن تكتب وتقرأ القصة. وكما ينبغي أن تحكى قصة النساء من مثيلاتها. قصة كتبت بالدموع والدماء والألم. أكتبها وأعيد صياغتها بدون كلل. وفي كل مرة جديدة تتوهج الكلمات والحروف وتفيض حياة ومشاعر جياشة. وتنبض بأشواق مغتالة وآلاف الأيام والليالي التي ضلت طريقها وأخلفت الموعد بسبب كبرياء زائف وغرور ملعون وغفلة الركض واللهاث وراء الوهم والهباء والهراء. قصة أكتبها اليوم بأنامل تعض على القلم بمشاعر من الندم. وألم لا يطاق. لكنها قصة لا بد لها أن تكتب هكذا من البداية الى النهاية. دون مساحيق ولا تحريف او تزييف ليقرأها عامة الناس. لإنها القصة التي يعيشها كل الناس رغم جهلهم لها وتجاهلهم لبطلتها. بل لا يراها أو يقر بها أغلب الرجال.

الفصل الرابع

بدون مرآة

اليوم الثاني: استيقظت فجأة على رنين هاتفين دفعة واحدة (في نفس التوقيت تقريبا). الهاتف الأول يحمل صوت الآذان والهاتف الثاني لا يتوقف عن الرنين. يا له من تزامن غير مسبوق. انتشلني الصوتان من نوم مضطرب. يباغتني صوتها قريبا مني وكأنها تخاطبني من داخل الحجرة. انتفضت من مكاني وانتبهت الى نفسي فوجدتني ممددا في نفس الموضع الذي تعودت هي على النوم فيه. لقد نمت في موقعها الرسمي بالسرير. وكنت متوسدا وسادتها يبدو لي الأمر أشبه بالمعجزة. لم يسبق لي أن فعلت هذا طول مدة زواجنا. فكيف حدث هذا؟ أو بالأحرى كيف لم يحدث مثل هذا من قبل؟ يا الاهي أين كنت طوال الوقت؟

أسمع صوتها من الناحية الأخرى من العالم:

هل تسمعني؟

أجبتها بصوت أجش:

نعم أسمعك. هل وصلت بخير؟

نعم وصلت بحمد الله. لكن تأخرت بنا الطائرة قليلا ولم يسعفني الواي فاي في الاتصال بك. حتى الواتساب لم يشتغل.

كيف حالك الآن؟ وحال الأسرة؟ كيف وجدت أمك المريضة؟

كلهم بخير ويسلمون عليك. لقد عملت بنصائحك طيلة السفر من المطار الى الطائرة.

أية نصائح لا أتذكر؟

المهم هل نمت جيدا؟ هل تناولت فطورك؟ لقد تركت لك كمية إضافية من الشاي في الترموس داخل الثلاجة وهنالك أيضا القهوة المفضلة لك لافاتزا. إياك أن تنسى نفسك وتحرمها من الأكل المنتظم. أعرفك جيدا تتكاسل وتظل منغمسا وسط الكتب ومشاهدة الكرة وتنسى أوقات الأكل.

شكرا على تذكيري. لقد استيقظت قبل لحظات فقط ولم أنم سوى بضع ساعات.

قبل أن أنسى. إذا حدث وفكرت في اعداد وجبة اكل خفيفة وحتى طهو ابريق شاي فإياك ان تغادر المطبخ قبل ان تطفئ النار من على الفرن. إنك كثير النسيان. هل تذكرت كم مرة فاض الشاي والقهوة وكم مرة حرقت البيض في المقلاة؟

هل هذا وقت هذا الكلام؟

نعم هذا هو الوقت المناسب. أنت وحدك الآن. انتبه أرجوك عندما تكون قرب الموقد. لست الان بقربك حتى اراقب المطبخ.

اطمئني. لن اطبخ أي شيء سأشتري أكلي جاهزا من الخارج.

لقد تركت لك عدة وجبات وسندويتشات جاهزة في الثلاجة والفريكو. سأتركك الآن الى اللقاء. لا تنسى الرد على مكالماتي لقد انتظرتك أزيد من ساعة قبل أن تجيب.

قالتها واقفلت الخط. انتهى كلامها، ولكن صداها ظل يتردد في ذهني بقوة. لطالما تكرر نفس الحوار بيننا في عدة مناسبات لكنني الآن فقط بدأت أفقه معناه. بدأت أدرك ما غاب عني في السنين الماضية. هل آن أوان المواجهة أخيرا مع أسوء مخاوفي؟

(12)

كنت اعتقد أن سفرها سيجعلني منكفئا في وحدتي متشاكسا مع ظلي أو منخرطا في إحدى تفاهاتي اليومية وترهاتي الوجودية، غير أنني أكاد لا أجد الآن أدنى فرصة للاختلاء بنفسي. وها هي تواصل حضورها الباذخ في تأثيث تفاصيل باطني وظاهري ووعيي منذ سفرها بالأمس. قررت اليوم القيام بالأشغال المنزلية التي اعتادت هي القيام بها. حاولت غسل الأواني بنفس الطريقة التي تعودت هي عليها، ثم تنقلت عبر البيت محاولا كنس المكنس وترتيب المرتب فقط من أجل اكتشاف نمط العمل اليومي الذي دأبت عليه هي طيلة سنوات. فجأة راعني أمر مريب. لقد باغتت نفسي وأنا أختلس النظر الى صورتي في ثلاث مناسبات، عبر ثلاث مرايا مختلفة. واحدة في الحمام. والثانية في غرفة النوم. والثالثة في غرفة الاستقبال والمعيشة. وخلال تلك المرات رمقت صورتي بنظرات غاضبة وساخطة، وبلغ بي الأمر حد إطلاق الشتائم ثم ختمتها بوابل من البصاق ألقيته على وجهي الذي ظل يتلصص علي عبر المرايا. والغريب أن صورتي في المرآة لم تكن أقل وقاحة فأخذت تبادلني الشتم والبصق في المناسبات الثلاث. لقد صار لي خصم جديد. وجهي. ألا يمكنني العيش بدون خصوم؟ فجأة تفتقت في ذهني فكرة (عبقرية). لم علي النظر الى وجهي دون رغبتي؟ لم أعد أطيقه. وابتداء من اليوم سأسعى لتجاهله لأطول مدة ممكنة. أريد أن أخلو بنفسي دون أن أرى ملامحه. علي أن أمحوها تماما كما سبق ومسحت تاريخي الشخصي والجماعي المزيف. هكذا اتخذت قراري التاريخي الأول في غيابها. قمت فورا بوضع غطاء على كل واحدة من المرايا الثلاث فاختفت عن نظري على الفور صورة (صاحب الظل الوقح). لم يعد مفروضا علي التطلع بعد الآن الى ذلك الوجه البئيس. قطعت صلتي به كما سبق وقطعت صلتي بالعالم الخارجي. ثم انتقلت الى الخطوة التالية وهي تعطيل هاتفي وبريدي الالكتروني قصد التأهب لما ينتظرني. أريد أن أتفرغ للمواجهة مع النفس لاختبار درجة صمودي في التعامل مع أسوء مخاوفي في يوم فريد كهذا، بدون وجه ولا مرآة، وبدونها هي بالخصوص.

أصبحت الآن بدون مرآة وبدون وجه كذلك. فماذا بعد؟ هذا ما أجهله. كل ما أعلمه أن الكينونة البشرية ترتبط أحيانا بالأشياء الصغيرة وأحيانا بالأفكار الكبيرة أو المشاعر الدافقة التي يصعب حصرها في نطاق ضيق أو محدد أو التحكم فيها وفي زخمها. وأحيانا أخرى يكتشف الانسان أن كل ما عاشه وتعلمه واختبره لم يكن سوى صدى للأوهام المتلاحقة المماثلة أو المتشبهة بحقيقة الأشياء، ولكنها ليست هي عين الحقيقة. هذه الازدواجية في الفهم أو التعاطي مع بعض الوقائع والأفكار هو أيضا جزء مما أسميه أسوء المخاوف، كثيرا ما تدفعني الى الاصطدام مع نفسي في الأحوال والأوقات غير المناسبة وقد يؤدي الى اختلال الموازين ما بين تمظهراني السطحية وقناعاتي الجوفي. وما المرآة سوى انعكاس لواقعنا الظاهري الذي هو في حد ذاته مرآة للماتريكس وانعكاس مزيف لدواخلنا. لا شك أن للمرايا دور في حياة البشرية يتجاوز مجرد النظر اليها لاكتشاف أشكالنا وإثبات وجودنا الصوري. نحاول بدرجات متفاوتة التعايش مع صورنا وملامحنا وتقبلها في نهاية المطاف قبل أن يتقبلها الآخرون. ولكن الى أي حد تعكس هذه المرآة حقيقتنا الداخلية. وماذا لو تعمقنا أكثر وتساءلنا عن إمكانية اعتبارها بوابة خفية لعوالم مجهولة؟ ماذا لو حاولنا اقتحام ما وراء ظاهر المرآة والصور التي تعكسها طول الوقت؟ الى أين ستقودني كل هذه الأفكار المجنونة التي تدور في ذهني وأنا أقف وحيدا في منتصف الليل خلف مرآة مطموسة المعالم؟ ولا أدري ما الذي يكمن خلفها من نداءات وعوالم مجهولة؟ اشتط بي خيالي. أدرك جيدا أنه في هذه اللحظة بالخصوص مختبئ ومندس في موقع ما. داخلي أو حوالي، أو مندس بين أولئك الشخوص والكينونات المتشاكسة في أغوار نفسي. إنه رابض، ولكن ليس بتلك البراءة التي قد يبدو عليها. إنه كباقي الوحوش والخصوم يتحين الفرصة للانقضاض كلما لمس في ضعفا أو رهبة أو استسلاما. وأنا هنا في قلب الليل البهيم وسط الوحدة والعزلة وهزالة الأضواء المنبعثة من المصباح الوحيد الذي سمحت لنفسي بإبقائه ساهرا بجنبي. في غمرة هذا المشهد أدركت بشكل ما أنه السيناريو المثالي لاي هجوم محتمل من العالم الآخر، وإن بتواطؤ مع هذا الكائن المتباهي بدوره كعميل مزدوج. ولكن من تراهم هؤلاء المتربصون والمتواطئون الآخرون؟ هكذا كانت تحدثني نفسي متعددة الوجوه والأصوات وكانت تجيب في نفس الوقت ... أتسخر مني؟ الا تعرفهم؟ اليس أولئك من يروننا من حيث لا نراهم؟ ويحضرون متى يشاءون ويغيبون حين يريدون أو متى يروق لهم؟ ألا يمكن أن يحاصروننا في أي وقت وحين؟ ألا يطاردوننا حتى في الاحلام؟ كفى كفى. أجبتها مقاطعا. أوقفت بصعوبة سيل هذا النوع من الأفكار والهواجس مدركا الى أين ستقودني. انها مجرد محاولة سخيفة لأضعافي والتأثير علي وافقادي السيطرة على أعصابي. لقد انطلقت المعركة اذن دون أن أدري، والعميل المزدوج يتقن دوره بشكل يدعو للإعجاب حقا؟ فهل سأمكنه من ذلك؟ لن أبدي له أي إعجاب. محاولاته

هاته بالخصوص لا تعجبني، بل تستفزني وعلي الرد عليه وعلى كل حلفائه المفترضين منهم والحقيقيين. لابد من المواجهة والقيام بخطوة استباقية. أقول لنفسي وأجيبها ومن خلالها أولئك المندسين والمختفين من ورائها: هؤلاء إن وجدوا لا اهتم لأمرهم ولا أخشاهم. هذا كل شيء. فإن كانوا يرونني فأنا أيضا أستطيع أن أراهم بطريقتي الخاصة ولدي اسلحتي الفعالة لردعهم يكفي أن انثر عليهم رذاذها فقط حتى تنطمس رؤيتهم وهويتهم وينكمشوا في ثنايا تلابيبهم. علي أن أسبقهم دائما بخطوة ولعل المرآة مطموسة الوجه المحجوبة في كفنها الآن كفيلة بمعرفة حجم الأضرار التي يمكن أن تلحق بها وبهم، من قبيل حرمانها من النظر الى العالم الخارجي من خلال وجهي. ألا يمكن أن يكون وجهي هو المرآة العاكسة للواقع؟ إنها دون شك ضربة مزدوجة حتى لخصومي المجهولين منهم والمفترضين، في هذه الليلة الظلماء. نعم أحيانا قد يروننا دون أن نراهم لكنها ليست مشكلتي الآن ولست أبالي. أعرف أن المرآة لا علاقة مباشرة لها بالأمر. لكن لو حدث وسقط الكفن عن المرآة واقصد بذلك الإزار وإذا ما اطل منها وجه غير وجهي وظل غير ظلي وأنا لوحدي الآن في قلب هذا الليل الصامت الطويل والبهيم فماذا عساني فاعل؟ ستنقلب المعادلة ونتائج المواجهة دون شك وسيتغير حالي وشعوري. عندئذ قد الوذ بالفرار وقد لا أستطيع. والى اين المفر؟ فانا داخل بيتي؟ ومن ذا الذي سيبتلع رعبي إذا انفجر من الداخل من دون استئذان؟ لا لا هذا ليس الحل. وليس هو الوقت المناسب للانسحاب. لأن المعركة في حقيقتها مندلعة منذ زمن لا أستطيع تحديده من قبل. والآن وليس قربي أو حوالي فقط، بل داخلي وعلي استرجاع السيطرة وحسم الموقف قبل فوات الأوان. بدأت أشعر أن شيئا ما سيحدث. شعور داخلي يتنامى ويطغى على بقية الأفكار المضطربة والهواجس المستسلمة. أطمئن نفسي أو الجزء المتماسك منها. لن يقع أدنى شيء يعكر صفوها. إنني في مواجهة اسوء مخاوفي. هذا كل ما في الأمر. مخاوفي المتنامية والمتمثلة في العزلة والغربة والوحدة والوحشة وصمت الليل الطويل. وبعدها عني أو ابتعادها. لم أعد أتذكر. مغادرتها وافتقادي لحضورها الإنساني وحضنها الدافئ وحضورها الذي يسكن نفسي ويدثرها بالحدب الذي تحتاجه حتى لا تتوه أكثر في رحلاتها الجنونية كما يحصل الآن. لا خوف علي الان بعد وصولي الى هذه القناعة. أحيانا تستيقظ داخلنا اسوء المخاوف في اللحظة غير الملائمة وتكون مغلفة بأسوء الذكريات وأخطر الأوهام التي تتضخم وتتغول أكثر من اللازم لتتحول الى اشباح تكاد تتراءى لنا من وراء حجاب كثيف من ضباب الاعيب التي تمارسها عقولنا المتعبة ونفوسنا الواهنة وحتى قرنائنا الذين يطمحون ليصبحوا شركاء لنا في هذا العالم. هذه الأشباح المتهاوية هي التي تتراءى لنا أحيانا وتطل علينا خلسة وأحيانا تطاردنا لمجرد انها انطلقت كفكرة عابرة لا تلبث أن تستحوذ علينا. فهل هي محض أوهام أم ظلال كينونات سارحة في الأكوان المجهولة والمتداخلة لتمارس وجودها الفعلي وتؤدي أدوارها المخلوقة لأجلها؟ هذا أيضا ما أجهله. ولا أدعي الالمام بتفاصيله ولا أستطيع البث او الحسم في شأنه؟ كل ما أعلمه بالضبط والساعة تشير الى الثالثة صباحا وأنا اكتب هذه السطور تحت اضاءة خفيفة جدا لا تكفي سوى لقلمي. ما أعلمه أن جل مخاوفي وأسوئها وضمنها رعبي من المجهول أحيانا قد يكون من

ورائها قريني أو ظلي، أو لعلها حالة نفسية تحاول التأثير على أفكاري وإصابتي بعدواها. لا يمكن ابدا في اشد الحالات غرابة أن يقع السناريو الأكثر رعبا في تاريخ أي شخص. يقع الآن لمجرد أنني غارق في وحدتي ومعزول في غرفة شبه مظلمة. ماذا لو تحركت كتلة مادية جامدة مثل كأس أو طاولة أو حذاء ثم تراقصت أمام ناظري كمشهد سوريالي من مشاهد الرسوم الكارتونية المتحركة التي لم تعد تنطلي حتى على الأطفال. كلا لا أفترض ذلك على الأقل في هذه الليلة. وما علي سوى اطفاء ذلك المصباح الخافت الذي لا يضيء حتى نفسه. ثم علي بالتحاف واحد من تلك الإزارات الشبيهة بالأكفان. أكفاني الليلية. وسأغرق في نومي وأتيه في حلم من أحلامي المزيفة. ولن يعنيني بعدها ما سيقع من حولي. دع ذلك الكائن البائس جاثما فوق رأسي. سأتفهم خيبته اذا ما فشل مجددا في افزاعي قبل نومي. لم يبق له ولا لحلفائه سوى فرصة ضئيلة للحاق بي في حلمي. لكنني أترك الباب مواربا لحدوث شيء ما. لا لشيء، سوى لغرض في نفسي. حتى لا أقول لعلة ما فيها.